المبحث الثاني

المعارضات

المعارضة في الشعر الاندلسي

هل اختلف الشعر الأندلسي عن شقيقه المشرقي ؟ وما اوجه هذا الاختلاف ؟

هذان سؤالان قديمان جديدان شغلا كثيراً من النقاد القدماء والمحدثين ومن خلال هذين السؤالين نستطيع أن نفهم ونعلل ظاهرة المعارضة في الشعر الأندلسي . (لقد يخطىء من يزعم أن شعر الاندلسيين يغيب في سواد غيره من الأقاليم كالعراق والشام والحجاز . بحيث يشتبه النسيج وتلتحم الديباجة . وذلك رغم من لا يعرف الشعر الا بأوزانه ولا يميز غير ظاهره[1]) .

فما المقصود بالمعارضة ؟ واين تقع من التقليد او الابداع ؟

لعل افضل تحديد لمفهومها ما ذكره الاستاذ احمد الشايب ، « والمعارضة في الشعر أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما . من أي بحر وقافية . فيأتي شاعرٌ آخر . فيعجب بهذه القصيدة لجانبها الفني . وصياغتها الممتازة . فيقول قصيدة في بحر الأولى . وقافيتها . وفي موضوعها أو مع انحراف عنه يسير او كثير . حريصاً على أن يتعلق بالأول في درجته الفنية ويفوقه . فيأتي بمعان أو صور بزاء الأولى . تبلغها في الجمال الفني . او تسمو عليها بالعمق أو حسن التعليل . وجمال التمثيل . او فتح آفاق جديدة في باب المعارضة[2] » . ولا علاقة بين اتفاق الشاعرين في العصر أو اختلافهما فيه ..

ونلمح الصلة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي حين نعلم أن المعارضة في اللغة هي المقابلة . يقال ، فلان يعارضني اي يباريني . وعارضته في السير اذا سرت حيالهُ وحاذيته . وعارضته بمثل ما صنع اي اتيت اليه بمثل ما أتى . وفعلت مثل ما فعل[3] . ومنه اشتقت المعارضة وهذا هو القياس . كأن عرض الشيء الذي يفعله مثل عرض الشيء الذي أتاه[4] .

(١) تاريخ آداب العرب الرافعي ٢ / ٢٩٦

(٢) تاريخ النقائض في الشعر العربي القديم ص ٧ (ط السعادة بمصر ١٩٥٨)

(٣) اللسان مادة عرض ، المحيط ، عرض

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤ / ٣٧٢

ويروق لبعض الباحثين ان يوازن بينها وبين المناقضة ، ليبين أوجه اللقاء والخلاف . وهي بينة واضحة . فالاولى تدل على الاعجاب . وتعرب عن الوفاء وتتصل بالبراعة الفنية التي تصل الى درجة التحدي . واما المناقضة فتدل على الاختلاف بين الشاعرين وعدم اتفاقهما من حيث الافكار بشكل اساس ، على نحو ما يبينه هذا الحوار بين يوسف بن هارون المعروف بالرمادي وشيخه يحيى بن هذيل ، حين يسأله التلميذ عن شعره فينشده ابياتاً منها ،

ومُرنّــه والدّجن يــنــســج فوقــها بُردين من حَلَكٍ ونَوء باكي
مالت على طي الجناح وانما جعلت اريكتها قضيب اراكِ

فيعجب بها . وينظم شعراً على نهجها ومنها :

أحــمامة فوق الاراكة بــيــنــي بحياة من ابكاك . ما ابكاك ؟
اما انا فبكيت من حرق الهوى وفراق من اهوى . أأنت كذاكِ ؟

فلما سمعها ابن هذيل قال له : اعارضتني ؟ فقال : لا . انما ناقضتك ! فقال له ابن هذيل ، اذهب فقد اخرجتك من الكتب[1]

ان مجرد قول الشاعر قصيدة في بحر قصيدة أخرى وقافيتها وموضوعها . لا يدل على تقليد مطلق للشاعر السابق على نحو ما ذهب عدد من الدارسين منهم الدكتور عمر فروخ والدكتور بدير متولي حميد[2] والصواب انها مظهر من مظاهر الابداع وصورة من صور التفوق . لاسيما في مراحلها الأخيرة . فقد يبدو الشاعر مقلداً وتكون المعارضة مظهراً من مظاهر هذا التقليد لكنه لن يجرؤ على معارضة كبار الشعراء الا بعد أن تستقوي لديه ملكة الشعر فيحاول مجاراة أعلام الشعراء ومظاهاتهم . وتنتهي به هذه النزعة وتستوي على ساقها . حين يدرك مرتبة أولئك الشعراء . الذين بدأ معجباً بهم . ومن هنا نستطيع أن نقرر بأن المعارضة حالة تتجاوز التقليد الى الابداع . والمتابعة الى الابتكار . والشاعر يمزج فيها بين القديم والجديد .. وهي وجه من وجوه النقد الفطري ـ كما يرى الدكتور عمر فروخ[3] ـ أليست هي مظهراً من مظاهر الاعجاب والحكم لشاعر بأنه أحسن ؟

---

(١) نثار الازهار ٨٢ وينظر تاريخ الادب الاندلسي ١ / ٢١٤
(٢) تاريخ الادب العربي ٤ / ٧٨ . قضايا اندلسية ٥٨ .
(٣) تاريخ الادب العربي ٤ / ٧٨

ولدينا أمثلة كثيرة على الشعراء الذين وقفت بهم شجاعتهم دون المعارضة او انهم عارضوا واخفقوا على نحو ما حصل حين طلب المنصور بن ابي عامر من صاعد البغدادي (ت ٤١٧) أن يعارض ارتجالاً قصيدة ابي نواس التي مطلعها :

اجارة بيتينا ابوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

فلم يجرؤ واعتذر ثم انه جاء من الغد بقصيدته التي مطلعها :

جذال الشرى اني بكن بصير ... طوتكن عني خلسة وقتير

يعلق ابن بسام على الحادث فيرى ان المنصور تعمد ذلك وحمله على غرر وعرضه لسوء الخبر لانه كان دعياً ومتمادياً في لجاجته [١].

وقصيدة ابن دراج في معارضتها مشهورة ، ومطلعها :

دعي عزمات المستضام تسير ... فتنجد في عرض الفلا وتغور

ورأى ابن بسام الشنتريني الناقد في عدد من الشعراء اخفاقاً في معارضاتهم حينما ساق خبر ابي عبدالله بن شرف الذي سأل المأمون بن ذي النون ان يقترح عليه اي قصيدة شاء من شعر ابي الطيب حتى يعارضه بقصيدة تنسي اسمه وتعفي رسمه فتثاقل ابي ذي النون اشفاقاً من فضيحته حتى الح عليه واحرجه فقال له دونك قوله : « لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي » يقول ابن بسام فخلا بها ابن شرف أياماً فوجد مركبها وعراً .. وارهق نفسه في امرها عسراً فما قام وما قعد ولا حل ولا عقد [٢].

والمعجبون بالمتنبي في الأندلس كثيرون فقد حاول ابو علي بن رشيق ان يعارضه واختار قصيدة من شعره ليست ذات شأن هي « أمن ازديارك في الدجى الرقباء » ثم صنع قصيدة بذل فيها طاقته لكنه قصر عن ان يبلغ شأوه (وعلم أن الاحسان كنز لا يوجد بالطلب .. وصان نفسه عن أن يحدث عنه بأن تكون الهرة أحزم منه)[٣]

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٤

(٢) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٤

(٣) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٥ حول منزلة المتنبي لدى الاندلسيين ينظر بحث الدكتور محسن جمال الدين
(معالم شخصية المتنبي في الاندلس) المورد ٦ / ٣ / ١٩٧٧

ولم تكن نظرة ابن شهيد الأندلسي ـ فيما نقله الحميدي عن كتابه حانوت عطار ـ مختلفة عن ابن بسام فقد انكر على من تولى ديوان الشعراء حيث قدم عبادة بن ماء السماء على عبدالرحمن بن ابي الفهد مع أن الأخير كان من اشعر من انبتته الاندلس حتى انه لم يكد يلقي شاعراً جاهلياً ولا اسلامياً الا عارضه وناقضه مثل الجواد اذا استولى على الأمد لا ينبي ولا يقصر.

لقد أنكر ابن بسام في ذخيرته، على بني قومه، تقليدهم لأهل المشرق التقليد الأعمى وذلك كان في مقدمة الأسباب التي دعته الى تأليف كتابه: «الا أن أهل هذا الأفق أبوا الا متابعة أهل الشَرق، يرجعون الى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أوطنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على ذلك صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً»[1]

الا أن هذا الاعتراف والاقرار من ناقد غيور مثل ابن بسام جرّه الى الدّفاع عن الأندلس أنفه وكبرياء، فاخذ يتتبع محاسن أهل بلده، وعصره، غيرة عليهما ثم صاح صيحته وبأعلى صوته فقال: «وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالاحسان؟ وقد كتبت لارباب هذا الشأن.. محاسن تبهر الألباب، وتسحر الشعراء والكتاب.. واودعت هذا الديوان.. من عجائب عملهم وغرائب نثرهم ونظمهم ماهو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمتع والرقبة.. لأن أهل هذه الجزيرة ـ مذ كانوا ـ رؤساء خطابة ورؤوس شعر وكتابة..»[2]

لقد كانت نظرة الاستهانة الى نتاج الأندلسيين وأستضآل ما يصدر عنهم، من الاندلسيين أنفسهم، إكباراً لنتاج أهل المشرق، وصورة من صور اتصال الفرع بالشجرة الأم، حتى أن ابن حزم الاندلسي العالم الفقيه أشار الى هذه الظاهرة في مقام المباهاة بجهود الاندلسيين وتفوقهم على عدوة المغرب في رسالته المشهورة في فضائل أهل الأندلس حيث يذكر أن من امثالهم «أزهد النّاس في عالم أهله» و «لايفقد النبي حرمته الا في بلده» وكأنه يسوغ بهذين القولين ما لقيه هو وامثاله من ابناء عصره وبلده من عدم احتفاء واهتمام.

---

(١) الذخيرة ١ / ١ / ١٢

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ١٢ ـ ١٤

وظهرت هذه النظرة كذلك عند المشارقة في مقولة أحد ادبائهم وعلمائهم حين بلغه ظهور كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه فحصل عليه ثم ازرى به باقتباسه من قوله تعالى ، « بضاعتنا ردت الينا » وهو موقف ينم عن ولع المشارقة . وشدة اهتمامهم بتتبع أخبار الأندلس لمعرفة مايأتي منهم . ومدى السبق الذي قد يحققونه .

وقد وقف ابو عبدالله الحميدي (ت ٤٨٨ هـ) موقف الحيطة والحذر ازاء هذا التتبع من المشارقة لاخبارهم حين نزل في بغداد وطلب اليه ان يضع مؤلفاً يجمع فيه ما يحضره من أخبار اهل الأندلس في الشعر واللغة والحديث فاعتذر ببعده وقلة مواده متذرعاً بسببين ،

أما أن أبخس القوم حظهم . وانقصهم فضلهم . فأتعرض للائمتهم فيما أوردت .. واما أن أوهم من رأى قلة جمعي . ونهاية مافي وسعي . أنه ليس من أهل الفضل في تلك البلاد الا نزر من الاعداد .[١]

والسببان الآنفان يدلان دلالة واضحة على تحسب الحميدي وحيطته ازاء المشارقة . ونلاحظ ان عدداً من المشارقة ابدى اعجابه بنتاج الأندلسيين ولدينا على ذلك شهادات لادبائهم وشعرائهم فمن ذلك ما رواه ابن بسام عن ابي علي القالي الذي زار الاندلس وصرح باعجابه من أهل الأندلس في ذكائهم حتى انه يتغطى عنهم عند المباحثة والمناقشة[٢].

وكذلك ما روى عن اعجاب شاعر كبير هو المتنبي بشاعر اندلسي هو ابن عبد ربه . حيث أنشد بعض اشعاره فاعجب بها وقال ، لقد يأتيك العراق حبواً »[٣]

وفي القرن السادس الهجري يعرب ابن العماد الاصفهاني عن اعجابه هو الآخر بسلاسة شعرهم ورقته ورونقه حين يقرأ لبعض شعرائهم[٤].

وتنطوي المعارضة على بعد سياسي . لا سيما حين يكلف امير او حاكم أندلسي شاعراً بمعارضة شاعر مشرقي . فانه إن نسب لشاعره التفوق على الشاعر المشرقي . يكون قد عزز ملكه بشاعر متميز يفوق شعراء ملوك المشرق ! .

---

(١) الجذوة ١ ـ ٢ وينظر تيارات النقد ٩٢

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ١٥

(٣) معجم الأدباء ٤ / ٢٢٢

(٤) الخريدة ٢ / ١٣٢

ويتجلى الأمر بشكل واضح حين يكون العداء مستحكماً على نحو ما نجد بين المغرب والأندلس . فقد أمر ابو تميم معد المعز لدين الله الفاطمي شاعره (ابا الحسن علي بن محمد الايادي التونسي) أن يعارض قصيدة ابن عبد ربه التي يستهلها بقوله :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن والوحش فيسها قد أنس

بعد أن أشتهر امر القصيدة .. فاستجاب لأمر الملك بقصيدته التي مطلعها[1] :

ربع لزينب قد درسْ واعتاض من نطق خرسْ

واعجاب الاندلسيين بادب المشرق ونتاجه أكد . وأشد ، لانهم كانوا يجدون فيه الوطن الأم الذي نزحوا منه . ومن مظاهر اعجاب الأندلسيين بالمشرق ما تجلى في صورة المعارضة في الحياة الثقافية والادبية حيث نجد ولعلهم الشديد بأتخاذ اسماء المشرق لمدنهم في الأندلس على نحو ما نقل المقري ان ابا الخطار حسام الكلبي كثر اهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد وانزل اهل دمشق البيرة لتشابههما وسماها دمشق وانزل اهل حمص اشبيلية وسماها حمص . واهل قنسرين جيان وسماها قنسرين واهل الأردن رية ومالقة وسماها الاردن واهل فلسطين شذونة وسماها فلسطين واهل مصر تدمير وسماها مصر[2] .

ومثل ذلك نشهده في اتخاذهم اسماء الكتب والمؤلفات مماثلة لنظائرها المشرقية واحتذائهم فيها مناهج مشابهة لكتب المشارقة فمن ذلك كتاب الحدائق لابن فرج الجياني (ت ٣٦٦ هـ) الفه معارضاً كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني[3] (ت ٢٩٧ هـ) وكتاب الكبير لأبي بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ) عارض به كتاب احياء علوم الدين للغزالي[4] . ولابن عبد ربه كتاب العقد الفريد حاكى فيه عيون الأخبار لابن قتيبة[5] . وكتاب ابن بسام المشهور (الذخيرة) تأثر في تأليفه بكتاب يتيمة الدهر للثعالبي[6] وكتاب امية بن أبي الصلت (ت ٥٢٩ هـ)

---

(١) وفيات الاعيان ١ / ١١٢ (ط احسان عباس) الوافي بالوفيات ٨ / ١٢

(٢) الاحاطة ١ / ١٠٣ وينظر تاريخ النقد الأدبي في الاندلس ٤٢ .

(٣) الذخيرة ١ / ١ / ١٣ ، الصلة ١ / ٥

(٤) البغية ١٢٥ ، الاعلام للزركلي ٧ / ١٣٣

(٥) ابن عبد ربه وعقده ، ٥٧

(٦) الذخيرة ـ المقدمة ١ / ١ / ٣٣

(الحديقة) قلد فيه كتاب اليتيمة كذلك . ولابن زيدون كتاب التبيين في خلفاء بني امية في الأندلس جعله على منزع التعيين في خلفاء المشرق للمسعودي[١] . ولابي عبدالله بن أبي الخصال كتاب المنهج عارض به كتاب مبهج الثعالبي[٢] وكذلك عارض ابا العلاء في كتاب ملقى السبيل[٣] . ولعثمان بن ربيعة القرطبي (ت ٣١٠ هـ) طبقات الشعراء بالاندلس وهو يشبه طبقات ابن سلام ولمحمد بن هشام المرواني اخبار الشعراء بالاندلس يقوم على فكرة الطبقات نفسها ولعبدالله بن محمد بن مغيث شعر الخلفاء من بني أمية وهو يشبه كتاب الاوراق للصولي وليحيى بن الحدج المرسي كتاب الاغاني الاندلسية وهو كتاب يشبه كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني . ويطلب الحكم المستنصر من ابن الصفار أن يؤلف كتاباً في اشعار خلفاء الامويين بالمشرق والاندلس مثل كتاب الصولي في اخبار خلفاء بني عباس . ولابن عبدالغفور الكلاعي[٤] كتب عارض فيها ابا العلاء المعري منها في السلطانيات والمقامات والساجعة والغربيب . وثمرة الالباب وملقى السبيل وفيها يعارض كتاب السجع السلطاني . والصاهل والشاحج وسقط الزند وغيرها من كتب المعري كما تقدم بنا في دراسة النثر في عهد الطوائف .

ولابن شرف القيرواني مقامات يعارض فيها البديع[٥] . كما عارض ابو حفص بن برد ابا الفضل ابن العميد في بعض رسائله الديوانية . ولابن خطاب فصل من كتابه « فصل الخطاب » في معارضة ابي الجوزي على ما سيأتينا .ولابن الخطيب كتاب التاج المحلي في مساجلة القدح المعلى سلك فيه هذا السبيل[٦] .

بل انهم شبهوا بعض ملوك الاندلس بالخلفاء العباسيين . يقول ابن حيان . « ان المعتضد كان يتخذ سيرة سميه الخليفة المعتضد بالله العباسي قدوة له . ويهتدي باخباره » ويقول ابن القطان عنه « كان ذا سطوة كالمعتضد العباسي »[٧] .

وكذلك كان الشأن في اطلاقهم القاب شعراء المشرق على شعرائهم فابو الأجرب جعونة بن الصمة . وابو الخطار حسام بن ضرار لقبا بعنترة[٨] والرمادي يوسف بن

---

(١) رسالة ابن سعيد في فضائل الاندلس النفح ٢ / ١٧٨ ـ ١٨٦

(٢) فهرسة ابن خير ٢٨٦

(٣) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١١٣

(٤) نفسه ٢ / ١١٣

(٥) الذخيرة ٤٥ / ١ / ١٩٦

(٦) لسان الدين بن الخطيب ٢٢٨

(٧) البيان المغرب ٢

(٨) المغرب ١ / ١٣١

هارون (ت ٤٠٣ هـ) لقب بأمرىء القيس وغالب بن رباح لقب بأبي تمام . وابن زيدون وابو عبدالله بن مجبر لقبا بالبحتري[١] وحمدونة بنت زياد بالخنساء او صنوبرية المغرب[٢] وابن اللبانة بالسموءل[٣]. وابو بكر الاعمى المخزومي بشار الاندلسي[٤]. وابو الربيع سليمان بن علي عرف بكثير ومؤمن بن سعيد دعبل الأندلس[٥] والرصافي البلنسي ابن رومي المغرب وابن خفاجة صنوبري الأندلس وابن وهبون شبه بأبي نواس والمتنبي وابن عبدون شبه بالمتنبي وابن دراج القسطلي وابن هاني الأندلسي وابو طالب عبد الجبار لقبوا بمتنبي الأندلس ومروان ألطليق شبه بابن المعتز واحمد بن محمد الجياني (تيس الجن) شبه بأبي نواس والمعتمد وشاعره ابن عمار شبها بالرشيد وجعفر بن برمك ويحيى الغزال شبه في خمرياته بابي نواس وابو مروان الجزيري شبه بابن عبد الملك الزيات والاعمى التطيلي بمعرى الأندلس[٦] وابن مرج الكحل بالوأواء .[٧]

وقد عبر الدكتور احمد هيكل عن دواعي المعارضات ـ بشكل عام ـ ووجد أنها تتمثل في محاولة الأندلسيين التفوق على سابقيهم المشارقة .. وهم في ذلك مدفوعون بروح القومية الأندلسية التي كانت تدعوهم دائماً لتأكيد ذوويتهم ، وابراز جهود بلدهم[٨].

واذا كان الاعجاب بشاعر او بقصيدة من قصائده سبباً من الأسباب التي دعت الى المعارضة ـ على المستوى الفردي ـ فان ذيوع قصائد معينة وانتشارها واعجاب النقاد بها وارتقاء منزلتها هو الآخر من الأسباب الداعية للمعارضة ، وهو أمر شبه متواتر في القصائد المشهورة . فمن ذلك نونية ابن زيدون : « وكان شعر ابن زيدون مثلاً يحتذيه من جاء بعده من الشعراء » كما يقول اوجست كور[٩]، ومن ذلك سينية ابن الأبار التي قال عنها ابن سعيد[١٠] :

---

(١) الذخيرة . ترجمة ابن زيدون ، رايات المبرزين ١١١

(٢) المغرب ٢ / ١٤٥

(٣) المغرب ٢ / ٤١١ ، المعجب ١٦٩

(٤) المغرب ١ / ٢٢٣

(٥) المغرب ١ / ١٣٣

(٦) الرايات ١٢٤

(٧) ينظر تاريخ النقد الادبي ٤٤

(٨) الادب الاندلسي ٢٥٩

(٩) تاريخ الفكر الاندلسي ٨٦

(١٠) اختصار القدح المعلى ص ١٩١

« وعارضه جمع من الشعراء ما بين مخطيء ومحروم ، واغرى الناس بحفظها ، اغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم » .

ويرى الدكتور سعد شلبي[١] ان نزعة التقليد التي أشار اليها ابن بسام وصلت بهم الى حد الشعور بالحرج من تقليدهم المشارقة وقد تجلى هذا الحرج في مظهريه ،

اولاً : تأليفهم الكتب للاشادة بشعرائهم كما فعل الحميري في كتابه البديع وابن بسام في الذخيرة وابن خاقان في القلائد والمطمح .

ثانياً ، تحرج الشعراء من التقليد والاقتباس من الشعراء المشارقة واتجاههم الى كبار شعراء الاندلس واتخاذهم اساتذة لهم .

اذا كانت المعارضة تلتزم الوزن والقافية فان موضوعها لا يتحدد بل يتعدد والمعارض الكفء هو الذي يتابع الشاعر المعارض في قصيدته في كل غرض وموضوع كما يتابع الفارس الفارس في نزاله في كل خطوة لا يتجاوزه ولا يبعد عنه حتى ينتصر عليه .

وتتعدد ضروب المعارضة وانماطها في الشعر الأندلسي وقد صرح ابن خفاجة باعجابه بالمتنبي في مقدمة ديوانه وحدد موضوع الاعجاب بقوله (من لف الغزل بالحماسة) واورد على ذلك مقطعات من شعره من مثل قوله ،

ورب لـيـالٍ بالـغـمـيـم ارقـتـهـا لـمرضى جـفـون بالـفرات نـيـام

ومقطعات اخريات[٢]،ويعقب عليها بقوله (ولكل واحد مأخذ طريف لطيف يأخذ بمجامع النفوس) مما يستدل معه ان معارضته ومحاكاته للمتنبي لم تكن محاكاة عمياء صماء بل انه كان يضفي على قصائده نَسغاً من روحه بحيث يتميز اسلوبه بطابعه . بل اننا نجد من انواع المعارضات عنده ما يأخذ المعنى والوزن ولا يلتزم القافية[٣]. ومن القصائد مالم يصرح به على انه يعارض فيها بل اشار الى انه يقتفي طريقة مهيار[٤] .

---

(١) دراسات ادبية ٦٨ ـ ٧١

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ١٦

(٣) ديوانه ص ٢٥٨

(٤) ديوانه ص ١٤

ويرى الدكتور محمد نوفل ان اتفاق القصيدتين في البحر والروي والموضوع يجعل المعارضة تامة ووافية وان اي اختلاف في هذه العناصر الثلاثة يجعلها معارضة ناقصة[1].

ونلاحظ ان النقاد نظروا الى المعارضة وكانوا في ذلك بين منكر ومستحسن وقد تقدم بنا موقف ابن شهيد حين ترجم لعبد الرحمن بن ابي الفهد الذي عارض عدداً من الشعراء فاستحسن ذلك منه ووجد فيه امارة على الابداع والتفوق، لكننا نشهد طائفة اخرى من النقاد تنكر وتستهجن وتنعى على الشعراء نهجهم هذا على نحو ما يسوق خبرهم ابن خفاجة ليرد عليهم ويطالبهم بأن يأتوا بشيء يسير من هذا الأسلوب الضعيف على زعمهم، ويتردد مثل هذا الحوار بين المنكر وابن خفاجة في مواضع من ديوانه[2].

ودراسة عجلى عن المعارضات في الشعر الأندلسي لا تستطيع ان تستقريء نصوصها وتستبين اساليبها وضروبها على نحو دقيق ولكننا سنشير اشارة عامة الى ابرز انماط المعارضات لمحاولة اعطاء فكرة عن حجم هذه الظاهرة وابرز شعرائها، والمكثر منهم والمقل.

نستطيع أن نقرر أن ابرز اعلامها في القرن الرابع الهجري هو ابن عبد ربه حيث تجلت لديه هذه الظاهرة واكتملت في شواهد كثيرة وامثلة شعرية متعددة،لقد كان ينظم الابيات ثم يذيلها ببيت من القصيدة التي عارضها وترد اكثر هذه القصائد مجتمعة في آخر الجوهرة الثانية في اعاريض الشعر والقوافي، ومجموع ما يرد منها ثلاث وستون قطعة بعدد ضروب العروض التزم فيها ذكر الزحاف والعلل التي يقوم ذكرها في الجزء الأول الذي اختصر فيه فرش العروض، ليكون كتابه مكتفياً بنفسه فمن امثلة ذلك ما اورده في البحر البسيط والضرب المجزوء[3]:

ظالمتي في الهوى لا تظلمي ... وتصرمي حبل من لم يصرم
اهكذا باطلاً عاقبتني ... لا يرحم الله من لم يرحم
قتلت نفساً بلا نفس وما ... ذنب بأعظم من سفك الدم
لمثل هذا بكت عيني ولا ... للمنزل القفر وللارسم
(ماذا وقوفي على رسم عفا ... مخلولق دارس مستعجم)

---

(١) تاريخ المعارضات ١٢

(٢) الديوان ص ١٢، ١٥، ١٨.

(٣) العقد الفريد ٥ / ٤٤٩

والبيت الاخير للمرقش كما أشار الى ذلك محقق العقد ، وقد تقدم بنا نص آخر في ابيات لامية عارض فيها عدي بن زيد العبادي وذلك حين درسنا اشعاره .

وقد اشرنا في حينها الى نزعة الشاعر المستحكمة الى المعارضة وانواع ما يرد في شعره منها وخصائصها[1] .

ومن شعراء هذا القرن كذلك جهور بن ابي عبدة الذي كان شاعر عبد الرحمن الناصر الا ان اكثر اشعاره لم تصل الينا ومما اورده ابن الابار قطعة من خمسة ابيات قالها في تفضيل الورد وكأنه يرد بها على ابن الرومي (ت ٢٨٣ هـ) في قصيدته التي مطلعها :

خجلت خدود الورد في تفضيله خجلاً توردها عليه شاهد

وقد تركت هذه القصيدة آثاراً بعيدة في شعراء الاندلس على نحو ما اورد الحميري في كتاب البديع في وصف الربيع ، وممن عارضها ابو عثمان سعيد بن فرج الجياني ، وابو بكر بن القوطية ، وقصيدة ابن الرومي قالها مفضلاً النرجس على الورد وهي اربعة عشر بيتاً وفيها يقول[2]

شتان بين اثنين هذا موعدٌ بتسلب الدنيا ، وهذا واعدُ
للنرجس الفضل المبين وان أبى آبٍ وحاد عن الطريقة حائدُ
من فضله عند الحجاج بأنه زهر ونور وهو نبت واحدُ
يحكي مصابيح السماء وتارة يحكي مصابيح الوجوه تراصدُ
والورد ـ لو فتشت ـ فردٌ في اسمه ما في الملاح له سمي واحدُ
هذي النجوم هي التي ربُتهما بحيا السحاب كما يربى الوالدُ
اين العيون من الخدود نفاسةً ورياسةً لو لا القياس الفاسدُ ؟

اما ابيات ابن ابي عبدة فهي قائمة على الاحتجاج يحاول فيها ان يثبت للورد صفات تجعله يفضل النرجس إذ انه على الرغم من مجيئه متأخراً فهو يحدد الحياة فيبعث فيها النشاط حين تكون النواوير الاخرى ومنها النرجس مصفرةً لتموت وليست للنرجس ميزة التبشير لان المبشر به هو الاهم كما يقول في ابياته[3] :

---

(١) اعلاه ابن عبد ربه ص ٨٨

(٢) ديوان ابن الرومي ٢ / ٦٤٢ تحقيق د. حسين نصار ـ دار الكتب المصرية حـ ١ ـ ٦ القاهرة سنة ١٩٧٦

(٣) الحلة السيراء ١ / ٢٤٧ ـ ٢٤٨ معلمح الانفس ١٨٥

خضعت نواوير الرياض لحسنه فتذللت تنقاد وهي شوارد
واذا تبدى الورد في أغصانه ذلت . فذا ميت وهذا حاسد
وإذا أتى وفد الربيع مبشراً بطلوع صفحته فنعم الوافد
ليس المبشر كالمبشر باسمه خبرٌ عليه من النبوة شاهد
واذا تعرى الورد من أوراقه بقيت عوارفه فهن خوالد

ومن بدائه الامور أن نجد شعر الطبيعة معدوداً في موضوعات الاندلس الاصيلة التي تقترن بالبيئة اقتراناً مباشراً . اذ أن نظمهم فيه ينم عن اتجاه اصيل نتيجة للتفاعل بين الشاعر والطبيعة الاندلسية التي من خصائصها هذا الجمال المتفرد .

لكن الشعر المشرقي بقي يرفد الاندلسيين حتى في مثل هذه الموضوعات . وظل شعراء الاندلس يستلهمون تجاربهم من النماذج الجيدة في الشعر المشرقي حتى نجد قصيدة ابي تمام التي مطلعها :

رقت جواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر

يعارضها ابو بكر بن نصر الكاتب . وابن قلبيل البجائي .[1]

وفي مطلع القرن الخامس الهجري يطالعنا شاعر كبير هو ابو عامر بنن شهيد الذي كان شاعراً وناثراً وناقداً . وقد دعته ثقافته الادبية الواسعة الى ان يخوض غمار هذا الميدان على نحو ما تقدم بنا حين وقفنا عند دراسة رسالته (التوابع والزوابع)[2] والذين عارضهم كثيرون . امرؤ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم وابو تمام والبحتري وابو نواس والمتنبي وتأتي معارضاته على صورة مقطعات شعرية او قصائد ينشدها بعد ان يستمع الى شيطان ذلك الشاعر ويكتفي من هؤلاء الشعراء بمطالع قصائدهم واحياناً يورد شيئاً من أبياتهم على نحو ما فعل مع ابي نواس فمن معارضاته قصيدته التي عارض فيها امرأ القيس التي مطلعها[3] :

سمالك شوق بعد ما كان اقصرا وحلتْ سُليمى بطنَ قوٍ فعَرعَرا

---

(١) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ١١١ وترجمة الشاعرين في الجذوة ٣٩٤ . ٣٩٠
(٢) اعلاه ص ١٨١
(٣) ديوان امرىء القيس ق (٤)

فيعارضه ابو عامر في قسمها الذي يفتخر فيه امرؤ القيس بنفسه وشجاعته وهي في اصلها تجاوز ستين بيتاً واما ابيات ابن شهيد فهي جزء من قصيدة لم يصل منها الا خمسة ابيات والمطلع"[1]

« شجته مغانٍ من سليمى وأدور » ثم يقول :

ومن قبة لا يدرك الطرف رأسها تزل بها ريح الصبا فتحدرُ
تكلفتها والليل قد جاش بحره وقد جعلت أمواجه تتكسرُ
ومن تحت حضني ابيض ذو سفاسق وفي الكف من عسالة الخط أسمرُ
هما صاحباي من لدن كنتُ يافعاً مقيلان من جد الفتى حين يعثر
فذا جدول في الغمد تسقى به المنى وذا غصن في الكف يحنى فيثمر

وخلاصة القول ان فكرة المعارضة لا تدل على مجرد التقليد وليس فيها ما يشير الى ضعف المستوى الفني للشاعر كما ليس فيها ما يدل على ضعف الادب الأندلسي قياساً لنظيره المشرقي صحيح ان الاندلسيين عارضوا المشارقة للاعراب عن اعجابهم لهؤلاء الشعراء وبقصائد منتخبة لهم ، لكننا وجدنا المعارضة تجري فيما بين الاندلسيين انفسهم ، كما وجدنا المشارقة هم المعارضون لقصائد الاندلسيين كذلك .

وتتردد فكرة الاتفاق بين الادبين المشرقي والاندلسي لدى كثير من الباحثين وهو اتفاق طبعي منسجم مع طبيعتيهما ، لان المنابع الفكرية والثقافية وروافدها واحدة .. ولذلك اتجهت الدراسات الى عقد موازنات بينهم وبين اهل المشرق ، وذلك ما حجب عنا روائع الاندلسيين ، فشوهت هذه الموازنات مجال اشعارهم عندما وجدنا الشبه قوياً بين الادبين .[2]

وتأخذ فكرة التقليد والتجديد بعداً واقعياً وتطبيقياً لدى احد الباحثين الذين وقفوا عند دراسة الأدب الأندلسي في فن من فنونه هو النثر حيث يرى الدكتور حازم عبدالله[3] ان الأدبين المشرقي والأندلسي كل متكامل مكون من اجزاء لا يمكن فصلها الا بما يمتاز به كل جزء في ذاته من غير اخلال بالقواعد لأمور عديدة :

---

(١) ديوانه ق ٢٤
(٢) دراسات ادبية ٧١
(٣) النثر الاندلسي ٥٢٧

١ ـ ان الادبين مكتوبان بلغة واحدة هي اللغة العربية ...
٢ ـ ان ثقافة الادباء الاندلسيين هي ثقافة الادباء المشارقة نفسها، قد أخذت الطائفتان من معين واحد ، وسارت على مثل وقواعد متفقة موحدة .
٣ ـ الصلة بين المشرق والاندلس كانت قوية متينة ودائمة مستمرة وبخاصة على الصعيد الثقافي والعلمي حيث كانت افواج العلماء والادباء تروح وتغدو من الاندلس الى المشرق او من المشرق الى الاندلس والمؤلفات كذلك .
٤ ـ وجودهم في بلد بعيد عن المشرق كان يحدوهم الى التطلع الى اخوانهم ويشدهم الى التمسك بمثلهم وافكارهم وعقائدهم كما يشدهم الى اثارهم في شتى الوان المعرفة .
٥ ـ الشبه الكبير في مظاهر البيئة الأندلسية بمظاهر البيئة العربية .

هذه الامور جعلت الأندلسيين معنيين باهل المشرق وما يصدر عنهم كما كان من الطبعي ان يتشابه الادباء الاندلسيون في آثارهم بآثار اخوانهم المشارقة .

من هنا يخلص الدكتور حازم الى القول بأن فكرة التقليد لا مكان لها في العلاقة بين الأدبين كما ان فكرة التقليد لم ترد على اذهان الباحثين بين مصر والعراق والشام والحجاز او اي اقليم عربي واقليم عربي آخر .
وان هناك اموراً امتازت بها الاندلس عن المشرق مع اتفاق اللغة والعادات والعقيدة وغيرها منها :

١ ـ البيئة الاندلسية التي التقت مع المشرقية ، ولكنها زادت عليها وأربت في صفاتها ومظاهرها بما احتوته من جمال الطبيعة الدائم ..
٢ ـ العادات الاندلسية التي انطلقت من العادات العربية الاصيلة لكنها افادت من بعض العادات المحلية التي كان عليها اهل البلاد الاصليون .
٣ ـ الامتزاج الذي حصل بين العرب وغيرهم من الأقوام .

ومن الدراسات الحديثة كتاب الدكتور محمد محمود قاسم نوفل[1] الذي كرسه لدراسة المعارضات في الشعر العربي بشكل عام وقد تناول في الفصل الاول معاني ومدلولات المعارضة ، اللغوي الاصطلاحي ثم استعرض في الفصل الثاني المعارضات في العصر العباسي حتى نهاية العصر الاموي وجاء الفصل الثالث اطول فصول الكتاب حيث وقفه لدراسة المعارضات في بلاد المغرب الاسلامي وقد جعله في ثلاثة

---

(١) مؤسسة الرسالة ودار الفرقان ـ بيروت ١٩٨٣

اضرب ، المعارضات الأندلسية الداخلية ، ومعارضات الاندلسيين لشعراء المشرق ، المعارضات في الموشحات واما الفصل الرابع فقد درس المعارضات لبعض القصائد المشهورة كقصيدة بانت سعاد والبردة وكان الفصل الخامس آخر فصول الكتاب درس فيه المعارضات عند البارودي والهاشمي واحمد شوقي ومعارضات منوعة بين عدد من الشعراء المعاصرين والقدامى .

والكتاب بوجه عام يحقق الهدف المعقود عليه بتعريفنا بأكبر عدد وصل اليه الباحث من المعارضات وفصول الكتاب تناولت القضية بشكل عام وان كانت قد اهملت دراسة المعارضات المشرقية للشعر الأندلسي وهي كثيرة ، ثم تأتي دراسة أخرى انجزت حديثاً لتقف عند المعارضات الاندلسية بشقيها ، التي عارضت الشعر المشرقي وتلك التي كانت بين الاندلسيين انفسهم ، وذلك في القرنين الخامس والسادس الهجريين .[١]

وسنعرض لابرز المعارضات بضروبها الثلاثة مشيرين الى ابرز شعرائها كيما يعود الطالب اليها فيتعرف على أبعاد هذا الفن وهي :

أ ـ معارضة الأندلسيين للمشارقة :

١ ـ ابو ايوب سليمان بن الحكم في قصيدته التي مطلعها :

عجباً يهاب الليث حدّ سناني وأهاب لحظ فواتر الأجفان

يعارض هارون الرشيد .[٢]

٢ ـ ابو بكر بن سوار الاشبوني في قصيدته التي مطلعها

وليل كهم العاشقين قميصه ركبت دياجيه ومركبها وعر

يعارض ابا فراس الحمداني[٣]

٣ ـ صاعد الأندلس يمدح ابا حسن بن وداعة السلمي سنة ٤١٧ هـ في قصيدته التي مطلعها ،

---

(١) للباحث يونس طركي سلوم البجاري ، كلية الآداب ـ جامعة الموصل آذار ١٩٨٨ وهي رسالته للماجستير

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ٤٧ (٣) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨١٥

ابا حسن ربيعة من سليم سـنان زان عالـية الرماح

يعارض ابن ميادة ، الرماح بن ابرد بن ثوبان (ت ١٣٦ هـ)[١]

٤ ـ ابو جعفر بن الابار في قصيدته التي مطلعها :

غادرت عرضي عرضة وابحته وتركت نهب نفائس ونفوس

يعارض الاشتر النخعي (ت ٣٧ هـ)[٢]

٥ ـ ابن عبد ربه في قصيدته التي مطلعها :

أتقتلني ظلماً وتجحدني قتلي وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل

يعارض مسلم بن الوليد (صريع الغواني) (ت ٢٠٨ هـ)[٣]

٦ ـ ابو الخطاب عمر بن أحمد بن عطيون التجيبي الطليطلي يمدح المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس في قصيدته التي مطلعها :

عاكـف جـفـنى على سـهره سيف جفن سل من حوره

يعارض ابا نواس (ت ١٩٨ هـ)[٤]

٧ ـ ابن الخطيب في قصيدته التي مطلعها :

اطلعن من سدف الفروع شموسا ضحك الظلام لها وكان عبوسا

يعارض ابا تمام (ت ٢٣١ هـ)[٥]

٨ ـ وفي قصيدة ابن عطيون التي مطلعها :

أمن كيوان أطلب أن اقادا لقد أعظمت شأوى ذا بعادا

يعارض ابا العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ)[٦]

٩ ـ ابن اللبانة الداني في قصيدته التي مطلعها :

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ٥٢

(٢) الذخيرة ٢ / ١ / ٢٩٦

(٣) ديوان ابن عبد ربه ص ١٣٢

(٤) الذخيرة ٢ / ٢ / ٧٧٤

(٥) نفح الطيب ٦ / ١٩٥

(٦) الذخيرة ٢ / ٢ / ٧٧٧

في الطيف لو سمح الكرى تعليل يكفي المحب من الوفاء قليل

يعارض ابا المظفر البغدادي من شعراء القرن الخامس الهجري[١]

١٠ ـ ابن الجنان الاندلسي في قصيدته التي مطلعها :

عيون النهى بين التدبر والفكر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

يعارض علي بن الجهم[٢] (ت ٢٤٩ هـ)

١١ ـ ابن دراج في قصيدته التي مطلعها :

دعي عزمات المستضام تسيرُ فتنجد في عُرض الفلا وتغورُ

يعارض أبا نواس[٣] على نحو ما سنفصل القول فيها .

١٢ ـ وفي قصيدة أبي المطرف بن عميرة (ت ٦٥٨ ه) التي مطلعها :

اقلوا ملامي أو فقولوا واكثروا ملومكم عما به ليس يقصر

يعارض رائية عمر بن أبي ربيعة[٤]

١٣ ـ ابن حزم الأندلسي في قصيدته التي مطلعها :

أودك ودأ ليس فيه غضاضة وبعض مودات الرجال سراب

يعارض فيها المتنبي وابا فراس الحمداني .[٥]

ب ـ معارضة الاندلسيين فيما بينهم :

١ ـ ابن اللبانة في قصيدته التي مطلعها :

خلعت عذاري في عذارٍ على خد حكى خضرة الريحان في حمرة الورد

يعارض ابن خفاجة .[٦]

---

(١) الذخيرة ٣ / ٢ / ٦٩٠

(٢) ديوان ابن الجنان رقم ١٦

(٣) ديوان ابن درّاج ق ٧٨

(٤) أبو المطرف بن عميرة ص ٢٣١

(٥) رسائل ابن حزم الاندلسي ١ / ٨٥

(٦) ديوان ابن اللبانة ق ٢٠

٢ ـ وفي قصيدته التي مطلعها :

عرج بمنعرجات واديهم عسى تلقاهم نزلوا الكثيب الاوعسا

يعارض أبا الربيع بن أحمد القضاعي[١]

٣ ـ أبو مروان عبدالملك بن رزين (ق ٥ هـ) في قصيدته التي مطلعها :

هبوا لنا حظكم من آل لبّونِ كم تبخلون علينا بالرياحين

يعارض أبا الحسن بن سابق[٢].

٤ ـ أبو الربيع القضاعي في قصيدته التي مطلعها :

زعم العبير بأنه حاكاكِ كَذَبَ العبير وما حكى ريّاك

يعارض ادريس بن اليمان العبدري[٣]

٥ ـ ابن خفاجة في قصيدته التي مطلعها :

ياصدى الثغر مر تهنا بمر الريح والديم

يعارض ابن باجة[٤]

٦ ـ أبو بكر بن الملح في قصيدته التي مطلعها :

هل يسمع الرّبع شكوانا فيشكينا أو يرجع القول مغناه فيغنينا

يعارض ابن زيدون .[٥]

٧ ـ أبو بكر محمد بن عبدالملك بن المرخي في قصيدته التي مطلعها :

في ذمة الفضل والعلياء مرتحلٌ فارقت صبرى اذ فارقت موضعه

يعارض فيها ابن زريق البغدادي .[٦]

---

(١) ديوان ابن اللبانة ق ٤٠

(٢) الذخيرة ٢ / ١ / ١٢٢.

(٣) الذخيرة ٢ / ١ / ٢٤٥

(٤) ديوان ابن خفاجة ق ٥٨

(٥) الذخيرة ١ / ١ / ٣٦٠

(٦) الذخيرة ٢ / ٢ / ٥٤١

٨ ـ أبو العلاء زهر الايادي (ت ٥٢٥ هـ) في قصيده الي مطلعها :

وفاؤك ما اسنى وفضلك ما اسرى ومجدك ما أسمى وزندك ما أورى

يعارض أبا محمد بن عبدون .[١]

٩ ـ ابن سهل الاشبيلي في قصيدته الي مطلعها :

الأرض قد لبست رداءً أخضراً والطل ينثر في رباها جوهراً

يعارض ابن عمار .[٢]

١٠ ـ أبو عبدالله بن الصفار في قصيدته التي مطلعها :

نسبت شرّ عبيد العجم للعرب جهلاً بفضل رسول الله والنسب

يعارض فيها أبا زيد الفازازي .[٣]

ج ـ معارضات المشارقة للأندلسيين

١ ـ نونية ابن زيدون :

يتحدث الدكتور الوكيل[٤] عن هذه المعارضات فيرى ان احصاءها يحتاج لضبطه الى رسالة وافية ومما يؤكد قوله ما ذكره الصفدي[٥] حيث قال : « وعارضها الناس في حياته وبعد مماته ولم يقاربوها » ولعله من الطريف أن نقرأ رأياً للصفدي[٦] يقرر فيه أن هذه النونية معارضة للبحتري في قوله .

يكادُ عَاذلنا في الحبّ يُغرينا فما لجاجكَ في لومِ المُحبينا

ومن هذه المعارضات معارضة الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) في زمن الشبيبة في مرثية يرثي بها بعض أصحابه ومطلعها :

---

(١) الذخيرة ٢ / ١ / ٢٢٩

(٢) ديوان ابن سهل رقم ٥٤

(٣) البيان المغرب ـ القسم الموحدي ٢ / ٢٦٠

(٤) ابن زيدون ومعارضوه ص ١٧٢ ، مجلة الكتاب عدد خاص في الذكرى الالفية لميلاد ابن زيدون ١١ ـ ١٢ بغداد ١٩٧٥

(٥) تمام المتون ١٢

(٦) نفسه ١٢

تحكمت بعدكم أيدي النوى فينا وقد أقامت بنادينا تنادينا

وذكر المقري انه وقف على موشحة لابن الوكيل دخل فيها على اعجاز نونية ابن زيدون وفيها يقول ،

غدا منادينا محكماً فينا
يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

ومن القصائد الذائعة في معارضتها قصيدة احمد شوقي :

يانائح الطلح اشباه عوادينا نشجى لواديك أم تأسى لوادينا

وقد تقدمت الاشارة الى معارضة ابي بكر بن الملح لها .

٢ ـ ياليل الصّب :

اشتهرت قصيدة ياليل الصب لدى دارسي الأدب ونقاده بعد أن أولع بها عدد كبير من الشعراء حتى ان القصيدة طبقت في شهرتها الخافقين فأدلى الشعراء بدلوهم وفتحو من مائها العذب ، محتذين أبياتها ، ومعانيها ، والفاظها ومبانيها .

ولعل السّر في هذا الأعجاب المنقطع النظير يعود بالدرجة الأولى الى وزنها الذي بناه عليه ابو الحسن الحصري القيرواني فجاءت على بحر الخبب والقصيدة في اصلها نظمت في خطاب ابي عبد الرحمن محمد بن طاهر صاحب مرسية وهي تتألف من تسعة وتسعين بيتاً يستهلها بثلاثة وعشرين بيتاً في النسيب ، وقد قيل ان الذي دعا الحصري الى نظمها وشاية لفقها اعداء الشاعر وابلغوها ابن طاهر وقد أشار الى الوشاية مفنداً ورادأ على شانئيه .

وقد وقف عدد من الدارسين عند هذه القصائد منهم الاستاذان محمد المرزوقي والجيلاني ابن الحاج يحيى حيث ساقا في مؤلفهما عن الحصري عدداً من قصائد المعارضات للقصيدة بلغ الاربعين .[١]

ومن نماذج قصائد المعارضات التي نتوقف لأستجلاء ابعادها ، قصيدة ابن دراج القسطلي التي يعارض فيها قصيدة ابي نواس في مدح صاحب خراج مصر ، ابي نصر الخصيب بن عبد الحميد ومطلعها ،[٢]

---

(١) ابو الحسن الحصري ص ١٥٠ ـ ٢٠١ ، ٤٩٥ .

(٢) ديوان ابي نواس ٤١١ ـ ٤٢٦ ، وتنظر دراسة القصيدة في الشعر والشعراء في العصر العباسي ٢٩٨ ـ ٣٠٢ للدكتور مصطفى الشكعة ، ط ٢ دار العلم للملايين سنة ١٩٧٥ .

أجارة بيتينا ابوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

وبين ايدينا رواية الصولي في ديوانه ، حيث جاءت في اربعين بيتاً ، ويكفي دلالة على شهرة القصيدة ان المنصور بن أبي عامر ، كان يستبد به الاعجاب بها ، وهو الذي اقترح معارضتها على ابن دراج وصاعد البغدادي ، لكن صاعداً أبى أن يعارضها ارتجالاً ، اجلالاً لأبي نواس لمكانته ، ومكانة قصيدته قائلاً ،[1]

انـي لـمـسـتـحـي علا ... ك من ارتجال القول فيه
من ليس يدرك بالروية ... كـيـف يدرك بالـبديـه

ولما أصر عليه المنصور ، لم يصبح حتى نظم قصيدته التي مطلعها ،

خِدال البُرى اني بكن بصير ... طوتكن عني خلسة وقتير

جاءت قصيدة ابي نواس في اربعة أشواط ، يبدأ في شوطها الأول بمخاطبة جارة بيتيه ، البيت والنسب .. ويدعو على نفسه بعدم الستر ان لم تكن صاحبته أو زوجته .. وانه ذو نظر ثاقب يزجر عيون الناس بعينيه التي هي كنظر العقاب التي طوت القوت عن ولدها ليلتين ، وهي تقلب نظرها بحثاً وتنقيباً ،

فأن كنت لا خلماً ولا أنت زوجةً ... فلا برحت دوني عليك ستورُ
وجاورت قوماً لا تزاور بينهم ... ولا وصلَ الا أن يكون نشورُ
وانيِ لطرفِ العين بالعين زاجرٌ ... فقد كدتُ لا يخفى عليّ ضمير
كما نظرت والريح ساكنة لها ... عقنباةُ أرساغ اليدين نزور

ثم يصل الحديث ـ في الشوط الثاني من القصيدة ـ بصاحبة بيته ، التي انهمرت دموعها حين نهته عن الرحلة الشاقة لأن دون مصر اسباب الفتن كثيرة ، فعلام هذا النصب والوصب وتلك المتاعب والمشاق ، وعلى الرغم من قناعته بما قالت ، فأن امله العريض بالخصيب هو الذي حفزه على الرحيل

تقول التي من بيتها خف مركبي ... عزيز علينا أن نراك تسيرُ
أما دون مصرٍ للغنى متطلبٌ ؟ ... بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتْها بوادِرٌ ... جرت فجرى في جريهنّ عبيرُ
ذَريني أكثرْ حاسديكِ برحلةٍ ... الى بلد فيه الخصيبُ أميرُ

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٢ ـ ٢٣ ، وساق ابن بسام منها ستة ابيات وعقب بعدها بقوله ، « ... ولكن ابن ابي عامر حمله على الغرر ، وعرّضه لسوء الخبر .. » .

واما الشوط الثالث فيتجلى بالمديح المباشر لممدوحه في حوالي عشرة أبيات .. ومنها قوله :

اذا لم تزر أرضَ الخصيبِ ركابنا ... فأيّ فتى بعد الخصيب نزورُ
فتى يشتري حسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائرات تدورُ
ولم ترعيني سؤدداً مثل سؤدد ... يحلّ ابو نصر به ويسيرُ
وأطرق حيّات البلادِ لحية ... خصيبية التصميم حين تسورُ

واذا كان ابو نواس قد حاور صاحبة بيته في الرحلة التي ارادت ان تثنيه عنها فأنه قبل وصفها انتقل الى المديح .. وكأنه اراد أن يستدرك ما فاته من وصف الرحلة الشاقة . وهي جزء حيوي ومهم من بناء قصيدة المديح فعاد في الشوط الرابع من القصيدة ليحدثنا عنها حديثاً متأنياً . حيث يذكر أكثر المدن التي مَروا بها متخذين الأبل وسائل في تلك الرحلة .. وبين بغداد ومصر خمسمائة وخمسون فرسخاً ..[1] ومن المدن التي مرّ بها بدأ بعقرقوف التي هي قرية من نواحي دجيل . عيني اباغ التي اضطر الى تثنيتها . وهي وادٍ وراء الانبار على طريق الفرات الى الشام . وماء النقيب . وتدمر . وجبل المدخن . وغوطة دمشق والجولان وبيسان . ونهر فطرس . وبيت المقدس . وغزة هاشم . والفرما وشقور حتى يبلغ فسطاط مصر فمما قاله يصف الابل وهي ترضخ الحجارة . وقد اصابها الوهن من مشاق السفر . فلم يبق من أجسادهن الا الشطور :

رحلن بنا من عقرقوف وقد بدا ... من الصبح مفتوق الأديم شهيرُ
وأصبحن بالجولان يرضخن صخره ... ولم يبق من اجرامهن شطورُ

ويأتي آخر القصيدة تماماً لشوطها الثالث وهو المديح الخالص بعد أن تقدم على وصف الرحلة سبعة أبيات معرضاً بطلب النوال :

زها بالخصيب السيف والرمح في الوغى ... وفي السلم يزهى منبر وسريرُ
جواد اذا الايدي قبضن عن الندى ... ومن دون عورات النساء غيورُ
واني جديرٌ ان بلغتك بالغنى ... وأنت بما أمّلتُ منك جديرُ
فإن تولني منك الجميل فأهله ... والا فأنـــــي عاذر وشـــــكورُ

وأما قصيدة ابن دراج في ديوانه[2] فمطلعها :

---

(١) ابو نواس قصة حياته ١٧٢ ، عبد الرحمن صدقي ، دار الهلال . القاهرة د . ت .
(٢) ديوانه رقم ٧٨

دعـي عزمات الـمـسـتـضام تـسـير فتنجد في عرض الفلا وتغور

وقد جاءت بنفس أطول حيث فاقت قصيدة أبي نواس بأكثر من النصف فبلغت خمسة وستين بيتاً . وزيادة مبنى القصيدة وعدد الأبيات تأكيد على أظهار البراعة والتفوق على الشاعر في قصيدته المعارضة . وغزارة نتاج الشاعر معيار للتفوق لدى اقدم النقاد .[1] ولا تختلف القصيدة ـ بشكل عام ـ في بنائها حيث جاءت في اربعة اشواط بأختلاف يسير حين جعل ابو نواس مديحة للممدوح في مرحلتين لكن ابا عمر ، جعله في شوط واحد كما يتصل الشوطان الاول والثاني ـ عند ابي نواس ـ في قصيدة ابن دراج على النحو التالي :

الشوط الأول : مخاطبة الزوجة بالرحلة الى الممدوح ، وزجرها اياه ، وتخوفها من عواقب السفر ثم وصف مواقف الوداع في ابياته الستة عشر الأولى ومنها قوله :

تـخوفـنـي طول الـسَـفار وأنّـه لـتـقـبـيـل كفّ العامري سـفير
دعيني أرد ماء المفاوز آجناً الى حيث ماء المكرمات نميرُ
ولما تدانت للوداع وقد هفا بـصـبـرى مـنـهـا أنة وزفـيرُ

وقد تقدم بنا الحديث عن السمة الاسرية في شعر الشاعر حين دراستنا اياه آنفاً .

اما الشوط الثاني : فيتناول وصف الرحلة ووعثائها ، ومشاقها في اثني عشر بيتاً ومنها قوله :

وأستنشق النكباء وهي بوارحٌ وأستوطىء الرمضاء وهي تفور
وللموت في عين الجبان تلوّنٌ وللذعر في سمع الجرىء صفير
أميرٌ على غول التنائف ماله اذا ريعَ الا المشرفيّ وزيرُ

حتى ينتهي الى حسن التخلص بقوله ،

لقد أيقنَتْ أن المنى طوع همتي وأني بعطف العامريّ جدير

حيث ينتقل الى الممدوح ويفرد فيه شطر القصيدة . ولدى الموازنة بين القصيدتين تتجلى اوجه الخلاف ، بعد أن رأينا اتفاقهما في الوزن والقافية والموضوع حيث نجد الشاعر يتوسع في معاني المدح من ناحية كما نجده يتوسع في وصف الرحلة وما يواجهه فيها .. ويتفنن في وصف مشاعر الأسرة والاولاد ازاءه ، واذا كان

---

(١) طبقات فحول الشعراء لأبن سلام ١ / ١٣٧ ، ١٤٧ .

ابو نواس قد ركّز على جانب الكرم في ممدوحه ، فأن ابن دراج جسّد في ممدوحه شخصية القائد المسلم المتكاملة الجوانب ، وفرق بينهما ، فأن الخصيب كان أميراً للخراج ، واما الحاجب المنصور فقد كان الحاكم الحقيقي ـ غير المتوج ـ للأندلس ، وذلك ما جعل قصيدة ابن دراج تفوق قصيدة ابي نواس في معانيها وصورها ، فقد جمع المنصور شطري الدين والدنيا ، وقد ورث النسب العريق كابراً عن كابر من جهة الآباء ومن جهة أمه التميمية كذلك :

وايّ فتى للدين والملك والندى ... وتصديق ظن الراغبين نزور
مجيرِ الهدى والدين من كل ملحدٍ ... وليس عليه للضلال مجير
تلاقت عليه من تميم ويعرب ... شموس تلالا في العلا وبدور
من الحميريين الذين أكفّهم ... سحائب تهمى بالندى وبحور

وبأسهم متصل على امتداد العصور ، وترامي الدهور :

لهم بَذَل الدهر الأبي قيادَه ... وهم سكنوا الايام وهي تفورُ
وهم نصروا حزب النبوة والهدى ... وليس لها في العالمين نصيرُ

وبعد الآيات البيض التي اسبغها على ممدوحه يعود ليقرّ بأنه لن يبلغ شأو ممدوحه فيقول :

مناقبَ يعيا الوصف عن كنه قدرها ... ويرجع عنها الوهم وهو حسير
الاكلَ مدح عن مداك مقصّر ... وكل رجاء في سواك غرورُ

والملاحظ أن لغة الشاعر لم تقصر عن لغة ابي نواس ، فتمثلت فيها جزالة الالفاظ ومتانتها وبراعة الاسلوب والصياغة .. وبذلك ادرك الشاعر مرماه ، وبلغ أمنيته ، وغالب النواسي ايّ مغالبة فشق غباره ولحق به ، وربما تقدم عليه في بعض أبياته ..